تأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة
(نظرات فاحصة في المنهج)

Taweel Mushkel Al-Quraan, by: Ibn Qutaybah

(Insights into the curriculum)

أ. م. د. هندي عبيد مخلف

Assistant Professor

Dr. Hindi Obaid Mikhlif

ملخص البحث

جمعت آيات القرآن الكريم ما بين الواضح السهل البيّن، والمشكل الذي تنوعت تفاسيره، وفاضت الكثير من معانيه، فهو عين العلم التي لا تنضب الى قيام الساعة، وفي هذا السياق فقد لفت نظري كتاب (تأويل مشكل القرآن) الذي وجدت فيه رغبتي لأعرف التأويل الصحيح واستسقي من معانيه مما أشكل على الدارسين وطلاب العلم، فكان هدفي من كل هذا هو لفت انتباه القارئ لهذا الكتاب والنظر في منهجيته التي كانت بمثابة نقلة في هذا العلم (التأويل)، إذ كشف مؤلفه ما خفي عمّن سبقه وأجاد فيه، وأماط اللثام عن الكثير من الكلمات الغريبة والموضوعات في النص القرآني التي تحتاج الى بيان، فجعلها واضحة جلية أمام القارئ بأسلوب سهل ممتنع، فكان بحق كتاباً يكشف عن دررٍ مكنوزةٍ ومعانٍ مبهمة ومن هنا كان سبب اختياري كتاب (تأويل مشكل القرآن) ليكون ميدان الدراسة في بحثي الموسوم بـ (تأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة نظرات فاحصة في المنهج) مسلطاً الضوء على علم من اعلام البلاغة والبيان الذي يعدُّ دائرة معارف في زمانه، وكان الغرض لابن قتيبة من تأليف كتابه هذا هو للرد على المطاعن التي وجهها اعداء الدين الى القرآن الكريم بوجود تهافت في إسلوبه وتناقض بين ألفاظه، ويبدو ذلك واضحاً من خلال النظر الى عنوان الكتاب، وقد تنوعت مصادره من القرآن الكريم نفسه او القراءات القرآنية أو من خلال السنةّ النبوية، والإستفادة من جميع المباحث اللغوية والبلاغية والشعر والنحو. واقتضت خطة البحث أن أقسمه الى ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة: تناولت في المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف وبيان أهم المصطلحات الواردة في عنوان المؤلَّف. وجاء المبحث الثاني: عن مرتكزات ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن). والمبحث الثالث: السمات العامة لمنهج ابن قتيبة في كتابه. وختمت البحث بخاتمة يبين فيها اهم النتائج والتوصيات. واخيراً قائمة المصادر والمراجع.

***

Summary:

The verses of the Noble Qur'an combined the clear, the clear, and the problem, whose interpretations varied, and many of its meanings flooded, for it is the eye of knowledge that does not exhaust until the Hour of Resurrection. Among its meanings, which have confused scholars and students of science, my goal in all of this was to draw the reader's attention to this book and to consider its methodology, which was a shift in this science (interpretation), as its author revealed what was hidden from those who preceded him and excelled in it, and revealed many words The strange and the topics in the Qur'anic text that need to be clarified, so he made them clear and obvious to the reader in an easy and abstaining manner. Hence the reason for choosing the book (The Interpretation of the Problem of the Qur'an) to be the field of study in my research, which is tagged with (The Interpretation of the Problem of the Qur'an by Ibn Qutayba Extensive Looks at the Method) highlighting the knowledge of the flags of rhetoric and the statement, which is a encyclopedia of his time, and Ibn Qutayba's purpose was to write This book is to respond to the accusations made by the enemies of religion to the Holy Qur'an, due to the inconsistency in its style and contradiction between its words. Linguistic and rhetorical investigations, Arabic poetry and grammar The research plan required that I divide it into three sections preceded by an introduction. In the first topic, I dealt with the definition of the author and the author and the statement of the most important terms mentioned in the title of the author. The second topic: On the foundations of Ibn Qutayba in (interpretation of the problem of the Qur'an). And the third topic: the general features of Ibn Qutayba's approach in his book. The research concluded with a conclusion showing the most important results and recommendations. Finally, a list of sources and references.

***

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن منهاجا لحياتنا نؤمن بمشكله وتأويله وبأحكام تنزيله، وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم القرآن الناطق، والصراط المستقيم الذي بلغ الرسالة فزال الضلال واشرق الهدى.

وبعد ... لطالما قرئ القرآن الكريم وهو كتاب الله الخالد، كلماته تفيض بالمعاني المختلفة، وكل آية تحمل في طيات كلماتها معان لا وزن ولا حصر لها، فهو كلام الله تعالى، إن قلنا في البلاغة فهو في القمة، وإن قلنا في الدقة فلا يصيب الهدف بدقة ما يصيبه هو. فدار بفلكه الكثير من العلماء، واستسقوا من علومه، فما روي أحد منهم ظمأه، وهو على هذا الحال الى قيام الساعة.

كما أنَّ آياته جمعت ما بين الواضح السهل البيّن، والمشكل الذي تنوعت تفاسيره، وفاضت الكثير من معانيه، فهو عين العلم التي لا تنضب الى قيام {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }.

وفي آيات القرآن ما يشكل على قارئها ؛ لأنها تقبل أكثر من معنى ويكون التأويل فيها بليغاً ؛ لأنها تعطي من الفاظ واحدة معانٍ جمّة، فلا تشكل على عالم متعلم، ولا تنفك عن إعطائه معاني تفك هذا الاشكال الذي يحوم حوله الكثير من أهل العلم.

فهنا نجد مشكلاً لفظياً، وهنالك نجد من أمسك بتلابيب المعنى ؛ لأن كل آية هي روضة يقطف منها المتعلم معانٍ جديدة ومتطورة مع كل وقت وحين.

بيد أني قطفت من بين الكتب ولفت نظري كتاب (تأويل مشكل القرآن) الذي وجدت فيه رغبتي لأعرف التأويل الصحيح واستسقي من معانيه مما أشكل على الدارسين وطلاب العلم، فكان هدفي من كل هذا هو لفت انتباه القارئ لهذا الكتاب والنظر في منهجيته التي كانت بمثابة نقلة في هذا العلم (التأويل)، حيث كشف مؤلفه ما أخفي عمّن سبقه وأجاد فيه، وأماط اللثام عن الكثير من الكلمات الغريبة والموضوعات في النص القرآني التي تحتاج الى بيان، فجعلها واضحة جلية أمام القارئ بأسلوب سهل ممتنع، فكان بحق كتاباً يكشف عن دررٍ مكنوزةٍ ومعانٍ مبهمة.

ومن هنا كان سبب اختياري كتاب (تأويل مشكل القرآن) ليكون ميدان الدراسة في بحثي الموسوم بـ (تأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة نظرات فاحصة في المنهج) مسلطاً الضوء على علم من اعلام البلاغة والبيان الذي يعدُّ دائرة معارف في زمانه، واسع الاطلاع، كيس فطن، تميز بدفاعه عن حمى القرآن الكريم ضد الشكوك التي تثار حوله، وأخذ على عاتقه في تأليف هذا الكتاب بيان وهم القائلين بالتعارض والتمانع بين نصوصه الشريفة، وبيان أنَّ ما توهموه ليس الا وجها من وجوه بلاغته وفصاحته واعجازه، وليس في نصوصه مثل هذا التناقض الموهوم، وسار في مؤلفه هذا طرقا عدة

لإثبات صحة ما قاله، انطلاقا من القرآن الكريم نفسه.

وسرت في بحثي على منهج محدد متنقلاً بين المنهج الوصفي والتأريخي والتحليلي في بعض المحطات، ولن أتجاهل المنهج المقارن ان تطلب المبحث المقارنة بين الآراء، واعتمدت التوثيق الصحيح والسليم للمصادر والمراجع المعتمدة وعدم تجاوز الموضوعية في عرض مطالب البحث.

واقتضت خطة البحث أن أقسمه الى ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة.

تناولت في المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف وبيان أهم المصطلحات الواردة في عنوان المؤلَّف.

وجاء المبحث الثاني: عن مرتكزات ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن).

والمبحث الثالث: السمات العامة لمنهج ابن قتيبة في كتابه.

وختمت البحث بخاتمة يبين فيها اهم النتائج والتوصيات.

واخيراً .. قائمة المصادر والمراجع.

***

المبحث الأول

التعريف بالمؤلف وبيان مصطلحات المؤَّلف «تأويل مشكل القرآن»

المطلب الأول: التعريف بالمؤلِّف وسبب تأليف الكتاب:

قبل الحديث عن المنهج في هذا المؤلَّف القيم لابَّد من التعريف بالمؤلِّف أولاً، ومن ثم بيان المصطلحات التي مثلت عنوان المؤلَّف (تأويل مشكل القرآن) ثانياً.

أولا: التعريف بالمؤلف:

أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ويقال له الدينوري[١].

وكنيته أبو محمد ويقال له القنيبي[٢].

والقنيبي نسبة الى جده، وهو أحد الاعلام البارزين في حاضرة الخلافة بغداد وهو من إسرة فارسية كانت تقطن مدينة (مرو).[٣]، وابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٢٤ هـ، رحمه الله تعالى هو أحد كبار هؤلاء العلماء المعروفين الذين قد جمع من كل علم قدرا كبيرا جعله

(١) الدينور من مدن الجل قرب قرميسين: ينظر معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٥٤٥/٢ .

(٢) نسبة الى القنب: واحد الأقتاب وهي الأكف التي توضع على نقالة أحمال الجمل

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

مرجعا للدارسين والباحثين ممن جاءوا بعده، ومن هذه العلوم علم التفسير وبيان مشكله ومعانيه، فهو الامام المفسر الذي حاز أهلية التفسير وجمع اطرافه، وتقدم في علومه المختلفة من لغة وأدب، وقراءات وأسباب نزول وغيرها من العلوم. .. فكان مصدر من مصادر التفسير لكل من جاء بعده. ..، حتى قيل فيه: أنه خير من مثل ثقافة القرن الثالث الهجري لكل ما فيها من أطياف المعرفة.

ولادته :

- ولد بالكوفة سنة (٢١٣ هـ)[١] وقال البعض أنه ولد ابن قتيبة (سنة ٢١٣هـ) ببغداد أواخر خلافة المأمون، واختلف المؤرخون في تعيين المدينة التي ولد بها، فقال السمعاني والقفطي أنه ولد في بغداد، وقال ابن النديم وابن الانباري وابن الاثير انه ولد في الكوفة.

وقد اتفقوا على أنه نشأ ببغداد والتي كانت تموج حينئذ بأعلام العلماء في كل فن، وتهوي اليها افئدة المثقفين والمتعلمين من كل انحاء المملكة الإسلامية. فكان احد العلماء والادباء والحفاظ الاذكياء، اماما في اللغة والادب والاخبار وايم الناس، متفنناً فيها صادقا فيما يرويه عالما بمشكل القرآن ومعانيه، وغريب الحديث ومراميه، ودقيقه ومغازيه، وكان مستقل الفكر جريئا في قول الحق، وهو اول من تجرأ في قول الحق في النقد الادبي، كان يحفظ كتب أبيه وهي (٢١) كتاباً في غريب القرآن والحديث والأدب والأخبار، ولي القضاء بمصر سنة (٣٢١هـ) فجاءها فعرف فضله وأقبل عليه طلاب العلوم والأدب. رجّح الكندي بأنه قد عزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته، وأكثر المؤرخين يقولون إنه مات وهو على القضاء. بلغت مؤلفاته (٥٣) مؤلف كان أشهرها: (غريب القرآن، غريب الحديث، أدب الكاتب، الإمامة والسياسة، تأويل مشكل القرآن، إعراب القرآن، تفسير القرآن. ..)[٢].

وفاته:

- توفي في مصر سنة (٣٢٢هـ)، كما ذكر ذلك الزركلي[٣] في حين يرى إبراهيم شمس الدين وغيره إنّ سنة وفاته كانت في سنة (٢٧٦هـ)[٤].

الباعث لتأليف الكتاب:

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه السبب الدافع والباعث الحقيقي لتأليف هذا الكتاب حيث

(١) ينظر: عيون الاخبار، ابن قتيبة، مطبعة دار الكتب المصرية: ١٦/١، من كتب تراثنا بقلم الدكتور محمد عبد القادر حاتم.

(٢) ينظر: الأعلام: خير الدين الزركلي، (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت (ط١٥ـ٢٠٠٢م)، ص١٥٦ وكتاب الولاة وكتاب القضاة: محمد بن يوسف الكندي (٣٥٥هـ)، تحقيق محمد حسن وأحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ط١ـ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م)، ج١، ص٣٤٧ .

(٣) ينظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ج٥، ص٣٤٧، ورفع الأصر عن قضاة مصر: بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة (ط١ـ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م)، ص٥٤ .

(٤) ينظر :تأويل مشكل القرآن :بن قتيبة الدنيوري، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥ .

يقول في مقدمته: (وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتّبعوا ماتشابه منه إبتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله بإفهام كليلة وأبصار عليلة، ونظر مدخول فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والإختلاف. .. وأولوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغرّ واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور. .. «[1]

ومما هو معروف أن ابن قتيبة موسوعة عصره وأحد أوعية العلم فهو لا يميل الى التأويل، ولا ينحرف الى التشبيه متبعا في ذلك سنن السلف الصالح كالإمام مالك ابن أنس (ت ١٧٩ هـ)، وأحمد ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ).

وأما أسباب تأليفه للكتاب فهي متعددة أهمها فشو اللحن، وضعف الملكات في اللغة العربية، وظهور الإلحاد، ومخالفته للمعتزلة في المذهب، ورفضه لرأي النظّام الذي يقول بالصرفة في إعجاز القرآن، فبين رأيه في إعجاز القرآن فقال: (وقطع منه بعجز التأليف أطماع الكافرين وأبانه بعجيب النظم عن حين المتكلفين). [2]، ورصد ابن قتيبة في كتابه حقائق الإعجاز وسحر البيان، حيث جمع البيان وأساليبه بمحاكاته القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأساليب العرب في كلامهم، فكأنه مدونة خصبة في البلاغة العربية وتطور مصطلحاتها وفنونها.

وقد وضع ابن قتيبة كتابه هذا للدفاع عن حمى القرآن الكريم ضد الشكوك التي تثار حوله، والمطاعن التي تسدد نحوه، وانتدب نفسه لدرئها وتبيان اعوجاجها، ورد كيدها الى نحر أصحابها خشية أن يغتر بها الاغمار والأحداث، أو يفتتن بها خفاف العقول وضعفاء الايمان.

يذكر (إبن قتيبة) إن سبب تأليفه للكتاب الذي نحن بصدد بيان منهجه فيه هو: الذب عن كتاب الله العزيز والرد على الطاعنين فيه ممن إتهموه بالخلل في النظم والإعراب، فوقف عند القضايا المشكلة فيه، دافعاً تلك التهم واحدة تلو الأخرى، لإثبات تفوقه وإعجازه.

وقال أيضا عن سبب تأليفه: (فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والايضاح، وحاملا ما اعلم فيه مقالا لإمام مطّلع على لغات العرب لأري المعاند موضع المجاز المجاز، وطريق الإمكان من غير أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل، ولم يجز لي أن أنص بالاسناد الى من له أصل التفسير، اذ كنت لم اقتصر على وحي القوم حتى كشفته، وعلى إيمائهم حتى اوضحته وزدت في الألفاظ، ونقصت وقدمت وأخّرت وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوي في فهمه السامعون)[3].

(١) تأويل مشكل القرآن: ص٢٢-٢٣ .
(٢) تأويل مشكل القرآن: ص٣.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ص٢٢-٢٣.

مميزات الكتاب:

قدم لنا الكتاب مادة تفسيرية قيمة إذ بين ابن قتيبة كثيرا من المفردات المبهمة مستشهدا على ما ذكره من معنى بكلام العرب بأبيات شعرية وبذكر بعض الجوانب اللغوية المتعلقة بالمفردة القرآنية كالإعراب والبلاغة كالتقديم والتأخير والذكر والحذف.

ويمتاز الكتاب بأمانة المؤلف وورعه وحياديته ويظهر ذلك في عدم التأويل والحكم بدون علم في نقله عن المفسرين فلم يسند اليهم، وكذلك كان رده على خصومه مهذبا، يقف عند حدود عرض الشبهة والتركيز على جلاء المشكل دون خوض في الاعراض أو المذاهب أو الأديان، بالإضافة الى التنظيم والتبويب الدقيق، وقد عزى بعض المؤلفين ذلك الى المام ابن قتيبة باللغة الفارسية ووقوفه على لغة الفرس وثقافتهم الناضجة وربما يعود ذلك أيضا الى أن ابن قتيبة بصدد الحديث عن مسألة دقيقة وهي الرد على الطاعنين في القرآن، لذا كان همه الافهام ودفع الشبهة فكان حذرا من الاستطراد وتشعب القول ومهتما بوحدة الموضوع والتركيز على الفكرة.

وقد عقد ابن قتيبة بابا اسماه (باب ذكر العرب وما خصهم الله به من المعارضة والبيان واتساع المجاز) ثم عقد بابا آخر في (حكاية أقوال الطاعنين) [1]. ثم عقد أبوابا في مباحث لغوية مهمة جعلها أساسية لدفع كل تعارض، وحل كل إشكال وهذه الأبواب هي على الترتيب الآتي:

١. باب القول في المجاز وضرب أمثلة عن ذلك.
٢. باب الاستعارة وضرب أمثلة عن ذلك.
٣. باب المقلوب وضرب أمثلة عن ذلك.
٤. باب الحذف والاختصار. .....
٥. تكرار الكلام والزيادة فيه. .....
٦. الكناية والتعريض. .....
٧. ظاهر اللفظ معناه. .....

ثم استعرض ابن قتيبة الآيات التي أورد الطاعنون عليها الإشكالات في صورها من القرآن الكريم غير مراع ترتيب المصحف؛ بل يذكر ما يعنّ له من الآيات، وقد يعود الى السورة بعد أن ينتقل الى غيرها.

وختم كتابه ببابين:

الأول: باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة: جعله لبحث الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى، وهو ما يسمى عن العلماء المشترك اللفظي.

الثاني: باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تصرف: وبحث فيه بعض هذه الحروف وحقق معانيها، وذكر شواهدها من كلام العرب ومن القرآن الكريم.

ولقد لفت السيد أحمد صقر محقق هذا الكتاب الى أهمية هذه المباحث اللغوية التي ضمنها ابن قتيبة كتابه فقال: (ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الكتاب قيمة تأريخية كبيرة؛ لأنها الى معارفنا عن تطور البلاغة شيئا جديدا فالشائع الذائع بين الخاصة وغيرهم أن البلاغة العربية طفرت

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٤ .

من نثار الجاحظ المبثوث في كتبه الى بديع ابن المعتز طفرة واحدة، ولم يعرف ابن قتيبة قد اسهم في تكوينها وتطورها بنصيب موفور، فظهور تلك الأبواب في هذا الكتاب يظهرنا على تلك الحالة المفقودة في تاريخ البلاغة، ويضيف الى أمجاد ابن قتيبة مجداً آخر عظيم الشأن سيذكره الذاكرون كلما تحدثوا عن تأريخ البلاغة ونشأتها.

ولن يستطيع باحث أن يغفل صنع ابن قتيبة في استخراج ما في القرآن من أنواع المجاز وتبويبها أبوابا مفصلة بلغت عدة صفحات أربعاً وخمسين صفحة ومائة قبل أن يؤلف ابن المعتز كتاب البديع في سنة أربعٍ وسبعين ومائتين لسنوات وسنوات.

ولباب: اللفظ الواحد للمعاني المختلفة: كذلك قيمة تأريخية عظيمة، فقد ارجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد الى اصل واحد نشأت منه وتفرقت عنه... وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق الى القول برد مفردات المادة اللغوية الى أصولها المعنوية المشتركة ؛ لأنه أسبق من إبن جني (ت ٣٩٢ هـ) ومن استاذه ابي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) ومن ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ).

المطلب الثاني: المؤلَّف

لم يحظ كتاب على وجه الخليقة بالدراسة والتأليف وسدر أغواره وبيان اهم ما اشتمل عليه من معارف وعلوم كالقرآن الكريم. ومن هنا فلا عجب ان يكون هذا الكتاب موضع العناية والرعاية الربانية بالحفظ من كل تحريف وتزييف، ولهذا فقد عكف العلماء على دراسته وتفسيره وبيان معانيه ومشكله حتى بلغوا شأناً عظيماً في فهمه واستخراج كنوزه، ولكل منهم أسلوبه ومنهجه الخاص به على ضوئه يفهم كلامه ويعرف مقصده ومراده

وفي هذا المطلب سنتحدث عن الدلالة التي تضمنها عنوان الكتاب والتي تمثل مدخلية لرؤية المؤلف في الموضوعات المطروحة في كتابه ومنهجيته في التعامل معها:

التأويل لغة: يعد جميع فقهاء اللغة أنّ لفظة التأويل هي من الجذر اللغوي (أول)، فالتأويل: من الأول أي: الرجوع الى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع اليه، وذلك هو رد الشئ الى الغاية المراد منه، علماً كان أم فعلاً.[1]

قال الخليل: (والمآل: الملجأ والمحترز، غير أنّ وأل يئل لا يطّرد في سعة المعاني اطّراد آل يؤول إليه، اذا رجع اليه، يقال: طبخت النبيذ والدواء فآل الى قد كذا وكذا، الى ثلثه او ربعه: يعني رجع).[2]

والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصح الا ببيان غير لفظة، قال:

(١) مفردات الفاظ القرآن، الاصفهاني: ٩٨، وينظر تاج العروس، الزبيدي: ٣١/١٤.

(٢) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت: ١٥٧ هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي: ٣٥٩/٨، وينظر لسان العرب، ابن منظور: ٣٤/١١.

نحن ضربناكم على تنزيله
فاليوم نضربكم على تأويله [١]

نرى إبن فارس يقول: « أوْل: إبتداء الأمر و إنتهاؤه. أما الأوّل، فالأول وهو مبتدأ الشيء. .. ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته ومايؤوّل إليه، وذلك قوله تعالى: {هل ينظرون الاّ تأويله }[٢]، أي ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم «[٣].

في حين يرى إبن منظور إن التأويل هو: «المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول الى كذا أي صار إليه، وأوّلته: صيَّرته إليه، قال الجوهري: التأويل تفسير مايؤول إليه الشيء، وقد أوّلته تاويلاً وتأولته «[٤].

ولابد من الإشارة الى إن كلمة «تأويل» وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة. في حين كلمة «تفسير» لم ترد سوى مرة واحدة.

ونستطيع القول: أنّ المعنى الجامع الأصلي للتأويل هو العودة الى أصل الشيء، سواء كان فعلاً أو حديثاً لإكتشاف دلالته ومغزاه، فإنّ لكل فعل او حديث ؛ ظاهر وباطن، والباطن لا ينكشف الا بتأويل الذي يرد الظاهر الى أصوله وأسبابه الحقيقية.

ولكن كلمة التأويل كما تعني الرجوع الى الأصل فكذلك تعني الوصول الى الهدف والغاية وتعني العاقبة ومنه قوله تعالى: {...ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا }[٥].

وبذلك يمكن القول: أنّ معنى تأويل الكلام هو رد معانيه وارجاعها الى اصلها الذي تحمل عليه وتنتهي اليه، فجميع هذه النصوص تؤكد على أن الأول بمعنى الترجيع يعززه قول الشريف الجورجاني: (التأويل في الأصل الترجيع)[٦].

واذا كانت اللفظة تعني الرجوع الى الأصل وتعني أيضاً الوصول الى الغاية، فالقاسم المشترك بين المعنيين هو دلالة الصيغة الصرفية «تفعيل» والتي تدل على الحركة، وبالتالي فالتأويل يعني الحركة بالشيء أمّا في إتجاه الأصل، أو في إتجاه

---

(١) كتاب العين: ٣٥٩/٨، والبيت من تهذيب اللغة، الازهري: ٤٥٩/١٥، وقائله: الصحابي الجليل عمار ابن ياسر رضي الله تعالى عنه . (روى الاعمش عن ابي عبد الرحمن السلمي قال: شهدنا مع علي رضي الله تعالى عنه صفين فرأيت عمار ابن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يتبعونه كأنه علم لهم، وسمعته يقول يومئذ لهاشم بن عتبه: يا هاشم تقدم الجنة تحت البارقة، اليوم القى الاحبة محمد وحزبه، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل ثم قال: نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله) . شرح نهج البلاغة، لابن الحديد المعتزلي: ١٠٤/١٠

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٣

(٣) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، ج١، ص١٦٢ .

(٤) لسان العرب: محمد بن مكرم إبن منظور، دار صادر، بيروت، (ط ٣ـ ١٤١٤هـ)، ج١١، ص٣٤. والمفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، (ت٥٠٢هـ)، ضبط هيثم طعمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص٣٦ .

(٥) سورة النساء: آية ٥٩

(٦) التعريفات، الجورجاني : ٧٨.

الغاية والعاقبة[١]

ثانياً: التأويل اصطلاحاً:

فقد عرفه الجرجاني بقوله: (هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة)[٢].

وقد وردت اقوال كثيرة أخرى في معنى التأويل اصطلاحاً:

فمنهم من قال: (التأويل هو رد أحد المحتلمين الى ما يطابق الظاهر)[٣].

وقال الذهبي: (التأويل هو ارجاع الكلام وصرفه عن معناه الظاهري الى معنى اخفى منه، وتأول فلان الآية أي: نظر الى ما يئول معناه)[٤].

وقال اخرون: (التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره او خالفه فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين)[٥]. نستنتج من هذه التعريفات السابقة ما معناه أن التأويل هو ابحار العالم بالمعنى دون اللفظ وصرف المعاني المستنبطة تأويليا بما يوافق اللفظ الأصلي أم لم يوافقه

اقوال المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين في التأويل:

اولاً: قول المتقدمين: جعل القدماء التأويل مرادفا للتفسير وبناء على هذا المعنى أصبح لكل آيات القرآن تأويل، ولكن بمقتضى آية: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ}[٦] فلا أحد يعرف تاويل الآيات الا الله[٧]، بل قيل: (بأن المفردات الثلاث (التأويل، المعنى، التفسير) لها المعنى ذاته)[٨].

ثانياً: قول المتأخرين:

معنى تأويل القرآن: (هو البيانات والانطباعات المخالفة لظاهر اللفظ، أو هو بيان للمراد والمقصود الحقيقي للآية والذي لا يتواجد في ظاهر لفظها، ويتوافق في الوقت نفسه مع سياق الآيات السابقة واللاحقة. وبمعنى آخر: أن التأويل هو الابتعاد عن المعنى الظاهري للفظ استنادا الى الدليل والقرينة، والتي لها تأويل هي الآيات المتشابهة فقط).[٩]

ثالثاً: قول المعاصرين:

بعد الدراسات التفصيلية في مباحث العلوم القرآنية لا سيما التي جرت من قبل الباحثين المعاصرين، فقد أبدوا آرائهم في موضوع التأويل بمعنيين:

١. المؤوِل: يقوم بارجاع المعنى الظاهر للمتشابه ويحيه للمعنى الذي انطلق منه، أو أنه

(١) ينظر: مفهوم النص: نصر حامد ابو زيد، مؤمنون بلا حدود، بيروت، لبنان، (ط١-٢٠١٧م)، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢) ينظر: التعريفات: الجرجاني، (ت ٨١٦هـ)، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١ـ١٤٠٣هـ ـ١٩٣٨م) .

(٣) تاج العروس، الزبيدي: ٣١/١٤.

(٤) التفسير والمفسرون: ١٥/١.

(٥) مجمع البحرين، الطريحي: ٣١١/٥.

(٦) سورة آل عمران، جزء من الآية: ٧.

(٧) ينظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ٨٠/١.

(٨) مجاز القرآن، أبو عبيدة: ٨٦/١.

(٩) التفسير الكبير، الرازي: ١٨٩/٧.

يظهر حكمه عمل يشوب ظاهره شبهة ما. علما أنّ المتشابه في المصطلح القرآني يطلق على لفظة تحتمل عدة معاني.

٢. الإفصاح عن المعاني الباطنية للآيات، طبقاً للحديث الوارد من (أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً)[١]. وهذا يعني أنّ التأويل يجري في جميع الآيات القرآنية، أنّ لكل لفظة في القرآن معان ودلالات متعددة يفهم منها القصد حسب كل طالب، فلو طلبها مفسر وجدها، أو لغويا أو بلاغيا أو أي عالم اخر لوجد ضالته فيها. فيكون التأويل عبارة عن: (فهم كلّي بغض النظر عن الخصائص التنزيلية بكل آية) كما جاء ذلك في كتاب التمهيد في علوم القرآن للعلامة الشيخ معرفة ويحصل هذا الفهم من خلال التعمق في الآيات القرآنية وتوفر إمكانيات التأويل وعلى رأسها الرسوخ في العلم.[٢]

ثانياً: المشكل: هذه اللفظة على وزن (مفعل)، وهي مأخوذة من المادة اللغوية (شكل) وتعني: «المثل، والجمع أشكال وشكول. يقال: هذا أشكل بكذا، أي أشبهه»[٣].

فالتشابه والتماثل بين الشيئين يؤدي الى المشاكلة والالتباس، ونجد هذا المعنى واضحاً لدى «إبن فارس « فيقول: « الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة، نقول: هذا شكل هذا، اي مثله، ومن ذلك يقال أمرٌ مشتبهٌ، أي هذا شابه هذا، وهذا داخل في شكل هذا ثم يحمل على ذلك....»[٤].

لذا فكل مختلط ؛ مشكل فتجد العرب تقول في الأبل، والغنم الأشكل: وهو الذي تختلط فيه الحمرة بالبياض، كأن لونه قد إشكل على الناس، لذا فكل مختلط مشكل، ومنه قيل للأمر المشتبه مشكل[٥].

وهذا ما ذهب اليه ايضاً الراغب الاصفهاني بقوله: «المشاكلة في الهيئة والصورة، والند في الجنسية، والشبه في الكيفية، قال تعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}[٦]، أي مثله في الهيئة وتعاطي الفعل، والشكل قيل هو الدَّلُّ وهو في الحقيقة الأنس الذي بين المتماثلين في الطريقة...»[٧]. ونستطيع القول بأن المشكل عند اللغويين والمفسرين هو ما تشابه في هيأته واختلط عليك التمييز بين احدهما فاصبح اشكال في أن يميز احدهما عن الاخر، ومن هنا جاءت تسمية المشكل.

والمشكل إصطلاحا كما يعرّفه الجرجاني: «هو ما لاينال المراد منه الا بتأمل بعد الطلب، أو هو الداخل في أشكاله، أي في أمثاله وأشباهه مأخوذ من قولهم

(١) عوالي اللئالي، ابن ابي جمهور: ١٠٧/٤.
(٢) التمهيد في علوم القرآن، الشيخ معرفة: ٢٠٦/٢.
(٣) تاج اللغة وصحاح العربية: اسماعيل الجوهري، (ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (ط٤ـ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م)، ج٥، ص٢٠٤ .
(٤) معجم مقاييس اللغة: ج٣، ص ٢٠٤ .
(٥) ينظر: لسان العرب :ج١١، ص٣٥٧ . وينظر: اساس البلاغة: جار الله الزمخشري ، (ت٥٣٨ هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١ـ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م)، ج١، ص ٥١٧ .
(٦) سورة ص: آية ٥٨ .
(٧) المفردات في غريب القرآن: ص٢٧٥ .

(أشكل) اي صار ذا شكل...»[١].

ويتحصل من ذلك كله بأن المشكل في القرآن هو الإختلاط او الالتباس الذي يحصل بين آيتين او لفظين متقاربين في المعنى بحيث يصعب التوفيق بينهما الا بعد أعمال الفكر والنظر.

الفرق بين المشكل والتأويل :

يتمثل الفرق بين المشكل والتأويل فيما يأتي :

التأويل هو الذي يكون في صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله اذا كان الذي يراه موافقا للكتاب والسنة[٢]. بينما المشكل يكون في الطلب والتأمل لغرض معرفة المراد منه[٣].

وبناءا على هذا التعريف يكمن الفرق بين المصطلحين بأن المشكل والتأويل لهما دور بارز في بيان القرآن الكريم الحديث النبوي معاً، ولكن يختص التأويل في ردّ الشبهات الى المحكمات دون المشكل، ومن ذلك ما جاء في حدود التأويل عند ابن حزم الاندلسي: (بأن التأويل يرتبط في تاريخ الفكر الإسلامي بالخلاف حول المحكم والمتشابه في القرآن، ومشكلة الصفات الإلهية على وجه التحديد، وهو أداة مهمة في يد المجتهدين تعين على الكشف عن روح النص المساير لظروف العصر وملابساته واستثمار الاحكام من مظانها من جهة ثانية في حدود الدلالات اللغوية)[٤].

المبحث الثاني

منهج ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن)

لعلّ القارئ والمتطلع أو المتبصر في علوم الأولين عامة وفي مسألة التفسير وما يخصنا في هذا البحث وعلى الرغم من اختلاف المنهجية لدى كل واحد منهم، بيد أنّ مصادر هذه العلوم ومنهجيتها قد اتفق عليها العلماء في الاخذ ؛ لأنها المصادر الأساسية في العلوم اللغوية والتشريعية والتفسيرية، فلا نجد أحد من هؤلاء العلماء يحيد عنها، أو يجد سبيلاً غيرها فقد كانت هي المنبع الوحيد ودلالة تأصيل هذا العلم منها. فالكل متفقون على أنّ القرآن هو المصدر الأول في كل هذه العلوم، ويأتي من بعده الحديث الشريف كل حسب مقاييس الذي يعتمدها في مسائل اللفظ والمعنى، والمصدر الثالث هو لا يقل أهمية عن سابقه ألا وهو الفصيح من كلام العرب أكان شعراً أم نثراً، وهذه المصادر هي الأساسية لكل منهج، وصاحب كتابنا هذا قد استسقى مما استسقى منه الأولين فنجد في منهجيته ما يلي:

---

(١) التعريفات: ص٢١٥ .

(٢) معجم التعريفات: ٤٦ .

(٣) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي: ٨٣٦ .

(٤) تفسير النصوص وحدود التأويل عند ابن حزم الاندلسي، عبد الحميد بعمان، مجلة الدراسات الإسلامية، الكويت: ٢٢٢ .

اولاً: القرآن الكريم:

اهتم ابن قتيبة بالاستشهاد بالقرآن الكريم في تفسير قسم من المفردات اللغوية الاشتقاقية، ويعد القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، فهو أفصح لسان عرفته الأمة العربية، ولا سيّما هو كلام الخالق سبحانه وتعالى إذ يعدّ الذروة العليا في البيان العربي الذي لا يباريه ولا يوازيه بيان. ... إذ ليس كمثل كلامه كلام. قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }[١]. وهو الركن الأساس من بين كل هذه المصادر وأهمها وقد تضمن في درر آياته الإشارة الى أنه المبين لكل شيء، فبين لنا من خلال شرحه دلالة المشكل في بعض الألفاظ موضحاً بواسطتها ما أشكل منه، فكيف يكون بذلك الوصف ولا يمكنه بيان نفسه. ومن الأمثلة على إعتماده هذا المصدر في نحو بيان لفظ (القرآن) حيث يقول: « والقرآن من قولك: ماقرأت الناقة سَلًى قطُّ، أي: ماهمت في رحمها ولداً وكذلك ما قرأت جنيناً، وأنشد أبو عبيدة: هجان اللون لم تقرأ جنينا[٢] وقال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [٣]، أي تأليفه»[٤].

فيرى ابن قتيبة أنَّ (القرآن) سمي بذلك، إما لأنه مأخوذ من الجمع بالإستناد الى الآية السابقة ويرى أنَّ سبب تسمية (القرآن) بذلك ؛ لأنه جمع السور وضمَّها[٥]، أو هو مصدر من القراءة مستنداً في ذلك بقوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [٦]، أي قراءة الفجر[٧].

وفي موضع آخر نجد «إبن قتيبة» يستعين بدقة استعمال القرآن الكريم للألفاظ وإستخدامها في أماكنها المناسبة بحيث إنك لو استبدلت هذه اللفظة بلفظة مرادفة لها لم تعطِ الصورة أو الدلالة التي أعطتها في سياقها القرآني، ومن الأمثلة على إعتماده هذا المصدر من ذلك كلمة الجحد ودلالتها في اللغة، إذ يكشف لنا ابن قتيبة دلالة ودقة الأداء القرآني في استخدام الألفاظ في مواضعها المناسبة، فمن المعلوم أنَّ المشركين في مكة لا ينسبون النبي محمد ﷺ الكذب، ولا يعرفونه به، فقد وصفوه في عصر ما قبل الإسلام بالصادق الأمين، فما بالهم لمّا جاءهم بالآيات من عند ربهم جحدوا بها وهم يعلمون صدقه ؟؟ لذلك يحدد ابن قتيبة دلالة (الجحد) في اللغة من خلال الإستعمال اللغوي لها فيقول: (الجحد يكون ممن علم الشيء فأنكره)[٨]، ويأتي بمؤيد لما ذهب إليه ويعزز استنتاجه هذا بايراد شاهد قرآني يوضح هذه الدلالة ويكشفها بأجلى صورها إذ

(١) سورة النحل: جزء من الآية ٨٩ .
(٢) مجاز القرآن: ابو عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢٠٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط١ـ١٣٨١هـ)، ص٢ .
(٣) سورة القيامة: آية ١٧ .
(٤) غريب القرآن: بن قتيبة الدنيوري، تحقيق احمد صقر، دار الكتب العلمية، مصر، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)، ص٣٣.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٣
(٦) سورة الإسراء: ٧٨.
(٧) ينظر: المصدر السابق، ص٣٣-٣٤
(٨) تأويل مشكل القرآن: ٣٢٢ .

يقول تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[١]

وفي موضع آخر كلمة (الخسر) إذ تأتي بمعنى: الهلكة، ويستدل ابن قتيبة على دلالة هذه الكلمة بشواهد من القرآن الكريم ؛ إذ وردت بصيغة اسم الفاعل المجموع جمع المذكر السالم وهو قوله تعالى بشأن الأمم السابقة: {وَأُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }[٢]، فمعنى الخاسرون هنا: هم الهالكون[٣]. ولا يكتفي بإيراد شاهد قرآني واحد ؛ بل يورد أكثر من شاهد أحياناً كما في هذه الكلمة نفسها؛ إذ تأتي في موضع آخر من القرآن الكريم بهذه الدلالة عينها ولكن بصيغة أخرى تفعيل أي (تخسير) وهو قوله تعالى على لسان نبي الله صالحاً عليه السلام مخاطباً قومه: {قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}[٤]، فالتخسير هو الهلكة أيضاً. فيلجأ إبن قتيبة ومن خلال هذا المصدر الى ان يحدد دلالة الفاظ القرآن الكريم بالإعتماد على الإستعمال القرآني.

وفي موضع آخر يستشهد ابن قتيبة في القرآن الكريم من ذلك كلمة (القضاء) إذ تأتي بمعنى (الختم) واستدل على هذا الأصل اشتقاقي بمادة (قضى) بشواهد كثيرة من القرآن الكريم فقال: في قوله تعالى: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}[٥]. ففسرها بالرجوع الى أصلها الاشتقاقي قائلاً: (أي حتمه عليها) [٦]. ولا يكتفي بإيراد شاهد قرآني واحد، بل يورد أكثر من شاهد كما في هذه اللفظة نفسها. أعني: القضاء، إذ أتت في مواضع أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ }[٧]. قال مفسراً إياها (أي: أمر)[٨]. وعلل هذه التسمية قائلاً: (لأنه لما أمر حتم بالأمر) [٩]. محاولاً إرجاع هذا الاستعمال ـ القضاء: الحتم ـ الى الأصل الاشتقاقي (قضى).

وفي موضع آخر ذكر ابن قتيبة أن الأصل الاشتقاقي (للبلاء) هو الاختبار موضحا ذلك بمعالجته لبعض استعمالات هذه المادة واستشهد بقوله تعالى: { وَابْتَلُوا الْيَتَامَى }[١٠]. قال: (أي: اختبروهم) [١١]. واسترسل في إيراد الشواهد القرآنية كقوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ }[١٢]. وقوله تعالى: { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[١٣]. ومثل هذا كثير في كتاب تأويل مشكل القرآن. فابن قتيبة يحدد دلالة الألفاظ في ضوء الاستعمال القرآني لها ويأتي بعدة شواهد في المسألة الواحدة

(١) سورة النمل: الآية ١٤
(٢) سورة التوبة :جزء من الآية ٦٩
(٣) ينظر تفسير غريب القرآن: ص٣٠ .
(٤) سورة هود: الآية ٦٣ .
(٥) سورة الزمر: جزء من الآية ٤٢.
(٦) تأويل مشكل القرآن: ٤٤١ .
(٧) سورة الاسراء: جزء من الآية ٢٣ .
(٨) تأويل مشكل القرآن: ٤٤١ .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) سورة النساء: جزء من الآية ٦ .
(١١) تأويل مشكل القرآن: ٤٦٩ .
(١٢) سورة الصافات: الآية: ١٠٦ .
(١٣) سورة الأعراف: جزء من الآية: ١٦٨ .

لكي يوضح الأصل الاشتقاقي ويكشف عن تفريعاته ومعانيه الجديدة. وهكذا نجده في مشكله يجمع الشواهد والأدلة لإثبات ما ذهب إليه في تحديد دلالة اللفظة القرآنية.

المطلب الثاني: القراءات القرآنية

لا يخفى على أحد أنَّ القراءات القرآنية ركيزة أساسية من ركائز التفسير، فلا غنى للمفسر عنها، فتنوع القراءات في الآية الواحدة يؤدي الى تفسير القراءة التي تحتاج الى بيان، أو قد تزيل الإشكال الحاصل، أو قد تؤدي معنىً جديداً، وما من كتاب في التفسير أو المعاني إلّا وتمثل القراءات القرآنية ركناً أصيلاً فيه.

ولم تكن القراءات القرآنية غائبة عن منظور «إبن قتيبة»، حيث نالت حظاً وافياً من عنايته بها، ولا سيما أنه قد اتخذها أعداء الإسلام وسيلة للطعن في ديننا الإسلامي فوقف ابن قتيبة مدافعاً من خلال الرد على أولئك المارقين من الكفرة والشعوبيين.

كيف لا وهي قد كانت من أبرز الطعون التي عمد إلى إستعمالها أعداء الدين الإسلامي ضد الدين، وقد وقف ابن قتيبة مدافعا من خلال الرد على أولئك المارقين من الدين من الكفرة والشعوبيين. فنجد «ابن قتيبة» ينفي أن يوجد حرف في كتاب الله قرئ على سبعة أوجه، ويرى إن الاختلاف في القراءات القرآنية ترجع الى سبعة أوجه هي[١]. فبعد أن يورد حديث النبي ﷺ وهو قوله ((نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ فاقرؤا كيف شئتم)). فيذكر ابن قتيبة الوجوه المحتملة في هذا الحديث ؛ اذ يرى قوم أنها سبع لغات في الكلمة، أو هي حلال وحرام وأمر ونهي وما الى ذلك، ثم يعمد الى تفسير المقصود من الحديث المذكور فيرى أن الوجوه الخلاف في القراءات القرآنية ترد على سبعة أوجه منها: أن يكون الاختلاف في القراءات القرآنية في إعراب الكلمة، أو في حركة بناءها بما لا يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، ويضرب بذلك أمثلة: كقراءة (يُجازى) في قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}[٢]، وقد يكون الاختلاف في القراءة بالزيادة والنقصان كما ورد في قراءة بعض السلف في قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}[٣]. فجاءت كلمة (أنثى) لبيان النعجة زائدة على الرسم القرآني المعروف في المصاحف وهي قراءة ابن مسعود [٤].

فكانت وجوه القراءات عند ابن قتيبة متباينة تماما بين أن هذه الاختلافات في القراءات لا تؤدي الى تغيير المعاني ؛ فدلالة الآيات في كل قراءةٍ من هذه القراءات لم يحصل فيها أي طارئ، ومن ثم لا يتغير معها أي حكم من الأحكام الدينية والتشريعية، ولذلك يبدي رأيه في القراءات مواضعاً في ذلك منجاً صحيحاً؛ إذ يقول: (كل ما كان منها موافقاً

(١) تأويل مشكل القرآن: ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة سبأ: الآية: ١٧ .

(٣) سورة ص: الآية: ٢٣ .

(٤) القراءات الشاذة، ابن خالويه: ١١٣ .

لمصحفنا غير خارج عن رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به)[١]. ويعدّ قول ابن قتيبة هذا من أحسن الأقوال التي قيلت في حديث النبي محمد ﷺ، وذلك راجع الى سلامة عقيدته ومنهجه في الإتباع.

١- الاختلاف في إعراب الكلمة او حركة بنائها بما لا يغير معناها ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}[٢]. وأطهر لكم بالرفع والنصب، وقوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [٣]. وميسرة.

٢- أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة مع تغيّر في معناها نحو قوله تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}[٤]، وربنا باعد بين أسفارنا.

٣- ان يكون الاختلاف في حروف الكلمة بما يغيّر معناها ولا يزيل صورتها كما في نحو قوله تعالى: {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}[٥] وننشزها.

٤-أن يكون الإختلاف بتغيّر صورة الكلمة في القرآن ولا يتغير معناها نحو قوله تعالى: { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}[٦]، وكالصوف المنفوش أن يكون الإختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها في نحو قوله تعالى: { وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} [٧]، قرئت: وطلعٌ منضود[٨].

٥-أن يكون الإختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله تعالى: { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ}[٩]، قرئت: وجاءت سكرة الحق بالموت.

٦-أن يكون ذلك الاختلاف بالزيادة والنقصان كما في قوله تعالى: { لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}[١٠]، قرئت: وما عملت أيديهم.

وبعد ذكره لهذه الأوجه في القراءات، يرى إن هذه القراءات لا يتغيّر معها حكم من أحكام الدين في الشريعة او العقيدة

فيقول: « كل ما كان موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به»[١١][١٢]

فبعد أن يورد حديث النبي ﷺ في موضع وهو قوله: ((نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرؤا كيف شئتم))[١٣]، فيذكر ابن قتيبة الوجوه المحتملة في هذا الحديث ؛ إذ يرى قوم: أنها سبع لغات في الكلمة، أو هي حلال وحرام وأمر ونهي وما الى ذلك. ثم يعمد الى تفسير المقصود من

(١) تأويل مشكل القرآن: ٤٢ .
(٢) سورة هود :آية ٧٨ .
(٣) سورة البقرة: جزء من الآية: ٢٨٠ .
(٤) سورة سبأ: جزء من الآية: ١٩ .
(٥) سورة البقرة: آية ٢٥٩ .
(٦) سورة القارعة: آية ٥ .
(٧) سورة الواقعة: آية ٢٩ .
(٨) وللاستزادة في ذلك ينظر: القراءات الشاذة، لابن خالويه: ١١٣ .
(٩) سورة ق: آية ١٩
(١٠) سورة يس: آية ٣٥
(١١) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ص٣١- ص٣٢
(١٢) المصدر نفسه :ص٨٠ .
(١٣) تخريج الحديث

الحديث المذكور أنَّ وجوه الخلاف في القراءات القرآنية ترد على سبعة أوجه منها: أن يكون الاختلاف في القراءات القرآنية في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها ويضرب بذلك أمثلة: كقراءة (يجازي) في قوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ }[١]. وقد يكون الاختلاف في القراءة بالزيادة والنقصان كما ورد في قراءة بعض السلف في قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ}[٢]، فجاءت كلمة (أنثى) زائدة على الرسم القرآني المعروف في المصاحف وهي قراءة ابن مسعود في قوله تعالى: (وتسعون نعجة أنثى)[٣].

فكانت وجوه القراءات عند ابن قتيبة متباينة تماماً بيد أنَّ هذه الاختلافات في القراءات لا تؤدي الى تغيير المعاني، فدلالة الآيات في كل قراءة من هذه القراءات لم يحصل فيها أي طارئ، ومن ثم لا يتغير معها أي حكم من الأحكام الدينية والتشريعية[٤]، ولذلك يبدي رأيه في القراءات القرآنية واضعاً في ذلك منهجاً صحيحا إذ يقول: (كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج عن رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به)[٥]، ويعدّ قول ابن قتيبة هذا من أحسن الأقوال التي قيلت في حديث الرسول ﷺ، وذلك راجع الى سلامة عقيدته ومنهجه في الاتباع.

المطلب الثاني: الحديث النبوي الشريف:

المصدر الثاني الذي إعتمده (إبن قتيبة) في منهجه هو الحديث النبوي الشريف، حيث كان يعتمد في تفسيره لغريب ألفاظ القرآن الكريم بالحديث النبوي الشريف ومن الأمثلة على ذلك تفسيره للآية القرآنية

في قوله تعالى: {ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين}[٦] ففسّر قطع الوتين بأنه كناية عن الموت أو القتل مستفيداً من الحديث النبوي الشريف الذي قاله النبي حينما دس اليه اليهود في إحدى الأكلات السم حيث يقول: (مازالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان وجدت إنقطاع أبهري من ذلك السم)[٧].

وهنا نجد «إبن قتيبة» قد إستشهد بالحديث الشريف بمضمونه [٨].

ومثال آخر لمنهجه في الإستشهاد بالحديث النبوي ماجاء في تفسير قوله تعالى: { قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ

(١) سورة سبأ: الآية ١٧ .
(٢) سورة ص: الآية ٢٣ .
(٣) القراءات الشاذة، ابن خالويه: ص١١٣ .
(٤) ينظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ص٤٢، والاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: ٧٨/٢ .
(٥) تأويل مشكل القرآن: ص٤٢.
(٦) سورة الحاقة: آية ٤٤-٤٦.
(٧) صحيح البخاري: محمد ابن اسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة، (ط١-١٤٢٢هـ)، ج٦، ص٩
(٨) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٤٢ .

قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}[١]، فيتحدث «إبن قتيبة» عن وصف الجنة ونعيمها بأنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا مما كان من صنعة العباد[٢].

فيتحدث «إبن قتيبة» عن وصف الجنة والنعيم فيها مستفيدا من مضمون الحديث القدسي الذي يتحدث عن وصف الجنة وما فيها من نعيم ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (أعددت لعبادي الصالحين مالا عيناً رأت ولا أذناً سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٣]. فيستفيد ابن قتيبة من الحديث النبوي إذ يضمن تفسيره معنى الحديث دون الإشارة الى الحديث بنصه.

ومن ذلك ما أورده في تتبعه لاستعمالات لفظة (المولى) فعند تأصيله لها قال: (المولى: المعتِق، المولى: المعتَق، والمولى: عصبة الرجل)[٤].

فابن قتيبة استشهد بقول رسول الله ﷺ: ((أيما امرأة نكحت بغير أمر مولاها فنكاحها باطل))[٥]. قال: ((بغير أمر وليها))[٦]. ومن استشهاده بالحديث النبوي ما أورده في تتبعه للفظة (الصلاة) يعني استعمالاتها. قال في تأصيلها: ((الصلاة: الدعاء))[٧]. وقال في تعريفه لها: ((الصلاة من الله: الرحمة والمغفرة))[٨]. فأعطى شاهداً هو قول رسول الله ﷺ: ((اللهم صلِ على آل أبي أوفى. قال: يريد: أرحمهم واغفر لهم))[٩]. ففي تأصيله لمفردة (الصلاة) استفاد ابن قتيبة من حديث الرسول ﷺ والذي يعطي الدلالة نفسها والتي يشير اليها الأصل الاشتقاقي، فابن قتيبة استشهد بالأحاديث النبوية في تأصيله للمفردات القرآنية.

ومن استشهاده بالحديث النبوي ما جاء في تفسيره للآية القرآنية من قوله تعالى: { ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ}[١٠]. فقوله تعالى: { ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} جاء كناية عن القتل أو الموت، فهو كمن قطع وتينه ؛ ففي تفسير الآية الكريمة يستفيد ابن قتيبة من حديث النبي ﷺ الذي يعطي الدلالة نفسها التي تشير اليها هذه الآية، وهو الحديث الذي يتحدث على حادثة تعرض لها رسول الله حين دَسّ له اليهود السم في إحدى الأكلات التي دعي اليها، فهو يقول ((ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري))[١١]. فعند تفسير الآية القرآنية الكريمة؛ وهذا الكلام الذي نطق به الرسول الكريم ﷺ لم يسمع من العرب كلام مثله، إذ هو مما استأثرت به البلاغة النبوية، فابن قتيبة اذا يستشهد بالحديث النبوي إما بنصه أو بمضمونه أحيانا.

(١) سورة الانسان: آية ١٦ .
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ص٤٢ .
(٣) صحيح البخاري: ج٣، ص٢٣٧ .
(٤) تأويل مشكل القرآن: ٤٥٥ .
(٥) سورة الحاقة: الآية: ٤٤ - ٤٦ .
(٦) تأويل مشكل القرآن: ٤٥٥ .
(٧) المصدر نفسه: ٤٦٠ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) المصدر السابق: ٤٦١ .
(١٠) سورة الحاقة، ٤٦.
(١١) سنن أبي داود، ٤/ ١٧٤، رقم الحديث (٤٥١٢)،

المطلب الثالث: الشعر العربي واللهجات العربية

يعدُّ الشعر العربي من أهم المصادر التي اعتمد عليها العلماء الأوائل في مسائل اللغة والتفسير، فكلما استوقفهم لفظ أو معنى رجعوا الى الشعر العربي لمعرفة دلالته أو بناءه اللفظي كما حدد العلماء هذه الفترة التي يقيسون عليها في هذا المجال فكلما كان جاهلياً كان الاستشهاد به أولى وأفضل، وإن لم يجدوا فعصر صدر الإسلام هو العصر الثاني بعد الجاهلي في مسألة الاستشهاد بصورة عامة.

وقد حظى ابن قتيبة خطواته على هذا المنهج والمسار الذي سار عليه من سبقه. فنجده كثير الاستشهاد بالشعر، لأنه ديوان العرب وسليل كتاب الله تعالى في الفهم لآياته، وهذا لبيان استعمال لفظة من الألفاظ هو شائع ومألوف في معظم المسائل التي يتطرق اليها، سواء أكان ذلك في كتابنا المدروس (تأويل مشكل القرآن) أو في تفسير (غريب القرآن)

والأمثلة كثيرة لا يمكن حصرها ومن ذلك أنه عندما أراد تأويل قوله تعالى: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}[١]. قال: (يريد أنهم ينظرون اليك نظراً شديداً يكاد يُزلِقُك من شدته، أي: يُسقِطك)[٢]. واستشهد على ورود مثل هذا الأسلوب في الشعر العربي، فقال: ومثله قوله الشاعر:

يتقارضون اذا التقوا في موطن
نظرا يزيل مواطئ الأقدام.

قال: (أي ينظر بعضهم الى بعض نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يزيل الأقدام عن مواطئها. ..)[٣].

واسترسل في الاستشهاد بالشعر قائلاً: (وقول النمر بن تولب في صفة سيف:

تظل تحفر عنه ان ضربت به
بعد الذراعين والساقين والهادي.

يقول: (رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر، واحتاج أن يحفر عنه ليستخرجه من الأرض)[٤].

وهكذا كان ابن قتيبة كثير الاستشهاد وبالشعر العربي وضرب الأمثلة ليستدل على ورود أساليب في القرآن الكريم كانت موجودة عند العرب في الجاهلية وهذا يدل على أنّ القرآن نزل بلغة العرب.

ويمثل الشعر العربي ديوان العرب وتاريخها الحاضر كما قال «إبن عباس» والذي كان يرجع الى الشعر العربي كلما إستوقفته كلمة من القرآن الكريم خفي معناها عليه.

وقد سار «إبن قتيبة» على هذا المنهج فقد كان كثير الاستشهاد بالشعر العربي لبيان دلالة الألفاظ القرآنية كقوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[٥]. يريد أنها تجمع وتسير فهي لكثرتها كأنها جامدة في رأي العين وهي تسير سير

(١) سورة القلم: الآية: ٥١ .
(٢) تأويل مشكل القرآن: ١٧٠ .
(٣) تأويل مشكل القرآن: ١٧١ .
(٤) تأويل مشكل القرآن: ١٧٣ .
(٥) سورة النمل: آية ٨٨ .

السحاب، وهذا الوصف لكل جيش غصّ الفضاء به لكثرته فقصر عنه البصر فكأنه واقف.

والى هذا المعنى ذهب الجحدي في وصف جيش، حيث يقول :

بـا رعـن مثـل الـطـور تـحـسـب أنـه
وقـوف لـحـاجٍ والـركـابُ تـهـدج[١]

ومثال آخر في قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٢]، حيث بّين « إبن قتيبة « ما تحمله هذه الآية من إعجاز بلاغي تضّمن ردع القاتل من خلال فرض قانون القصاص.

ثم يشير الى شاهد شعري، أخذ مضمون هذه الآية في شعره حيث يقول:

أبـلـغ أبـا مـسـمـع عـنـي مغـلـغـه
وفـي الـعـتـاب حـيـاة بـيـن أقـوام[٣]

وكذلك في تفسير قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٤]. بعد أن يذكر ابن قتيبة مفهوم الآية وهو أن القاتل إذا أقيم عليه الحد إرتدع بقية أبناء المجتمع، فيمتنعون عن الإقدام على هذه الجريمة البشعة التي صورها القرآن الكريم بأنها قتل الإنسانية جماعة، يأتي بشاهد شعري يبين فيه أن الشاعر قد أخذ مضمون آيات القصاص:

أبـلـغ أبـا مـالـكٍ عـنـي مُـغَـلْـغَـةٍ
وفـي الـعـتـاب حـيـاة لأقـوامِ[٥]

هناك تشابه في الغاية ما بين الآية والبيت الشعري، إذ الغرض هو توفير الأمن والسلام بين أبناء المجتمع، فكما أنّ القصاص في القتلى يؤدي الى ردع القاتل عن الإقدام عن القتل، فكذلك العتاب ؛ إذ أنه مانع للإقتتال، مزيل للضغائن والأحقاد لقوله: حياة لأقوامِ، لذا عزز ابن قتيبة هذا المعنى بما ورد في الشعر[٦].

المطلب الرابع: اللهجات العربية

الحديث عن اللهجات قريب مما قلناه في القراءات القرآنية. وقد اعتمد ابن قتيبة في مشكله على اللهجات العربية أو ما يسمى وجوه القراءات وأفرد له باباً أسماه: باب الرد عليهم في وجوه القراءات ؛ استهله بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ فاقرؤا كيف شئتم))[٧]. وقد أمر الباري عز وجل محمد رسول الله أن يقرئ الناس بلغاتهم للتسهيل والتيسير على الأمّة، فعلى سبيل المثال أن القبائل تختلف في نطق الهمزة

فيقول «إبن قتيبة»: «التميمي يهمز والقرشي لا يهمز»[٨] ومؤكد إن ذلك مبني على الغالب في القبيلة حيث إن قبيلة تميم تميل الى

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ص١٣
(٢) سورة البقرة: آية ١٧٩ .
(٣) ينظر: البيان والتبيين: ابو عثمان عمرو الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، دار الهلال، بيروت، (١٤٢٣هـ)، ج٢، ص٢١٦.
(٤) سورة البقرة: الآية: ١٧٩ .
(٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ٣١٦/٣ .
(٦) ينظر تأويل مشكل القرآن: ٦ .
(٧) الحديث
(٨) تأويل مشكل القرآن :ص٣٩

الشدّة والتفخيم؛ لأنها تعيش في بيئة بدوية لذا نجدها تستعمل الهمزة والتي هي تناسب الشدة فلاءمت ببيئتهم.

في حين أن لهجة قريش تميل الى التسهيل والتيسير بحكم بيئتهم الحضرية لذا، نجدهم لا يهمزون[١] ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ}[٢].

حيث يقول «إبن قتيبة»: جاء إسم إنَّ مرفوعاً بالألف وذلك يخالف القاعدة النحوية التي تنصب إسم إنَّ فيبرر «إبن قتيبة».

هذه الظاهرة بأنها : «هي لغة بلحرث إبن كعب: يقولون: مررت برجلان وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه، وركبت علاه»[٣].

فهذه القبيلة تجعل المثنى يلزم حالة واحدة في جميع الحالات الإعرابية، ويعلل «إبن قتيبة» ورود هذه اللهجات بألفاظها في القرآن الكريم حيث أراد النبي ﷺ أن يكسب أبناء هذه القبائل للدخول في دين الله أفواجاً من غير عنت ولا مشقة وفي ذلك قال: (ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه)[٤].

كذلك كان حضور بيان دلالة الألفاظ من خلال عرض الأصل اللغوي ل اللفظة المستعملة في القرآن الكريم، وكذلك تناول تطور دلالة الألفاظ كان حاضرا في ذهن «إبن قتيبة» في محاكمة الألفاظ وبيان دلالتها الى الظواهر اللغوية والبلاغية من إشتراك، وتضاد، وكناية، وإستعارة، ومجاز وما الى ذلك.

وتأكيده الكبير في منهجه على المسائل الإعرابية ويتحصل من ذلك كله إن «إبن قتيبة» وفي مسلكه هذا يمكن ان نطلق عليه (المنهج الجامع) حيث توفرت لديه منظومة متكاملة من المعارف التي سبقه إليها العلماء والمفكرون فأخذ ينتهل من المنهج الأثري في تفسير القرآن الكريم ولم يغفل كذلك عن المنهج اللغوي بكل مايحمله من مسائل، ليتمكن من الدفاع عن القرآن الكريم، وبيان وهم من زعم بوجود تضاد او تعارض في ألفاظ القرآن الكريم.

وفي بحثنا المقتضب إقتصرنا فيه على المصادر الرئيسية الثلاث، وإلا فالكلام يطول جداً في توضيح جميع معالم منهجه.

***

(١) ينظر: فقه اللغة العربية: كاصد الزيدي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ص٢١٠ .

(٢) سورة طه: آية ٦٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن: ص٣٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٢٨٦ .

المبحث الثالث

السمات العامة لمنهجية ابن قتيبة

لكل عالم ومتعلم ومتبصر في علوم العربية وعلوم التفسير مطلع على هذا الكتاب يجد فيه مادة (دسمه) حيث جمع وحوى وكأنك في روضة يانعةٍ فيها كل ما تشتهي فتقطف ما يحلو لك غير انك لا تستطيع ترك أي واحدة منها، فكلها شهية ولذيذة.

وعندما نقرأ نجد فيه نفس العالم وروحه في الدفاع عن كتاب الله ودرء الشبهات عنه بروح العالم الفاهم المتبصر الذي يدرأ الشبهة الجاهلة العمياء برأي متبصر فاهم، فتفهم من أول وهلة تقرأها، وتجر تلابيب عقلك للفهم والإدراك وقوة الحجة، فعندما ترى اكثر من شاهدٍ ما بين حديث شريف وبيت شعر وقول عالم وقول فصيح مما قاله العرب تتضح لك الحقيقة ولا ينتقل من موضع الى آخر إلا وقد كفاك فهمه فلا يترك مكانا في النفس غصّة.

كما وجمع من البلاغة والفصاحة أبوابا عدة كان منها مشهورا أو غير مشهور، أو ما تجده من ترادف الألفاظ ومباني عدة، ومعاني وفيرة قد رفدت اللغة العربية بخزين وافر اتخذه من بعده مصدرا لها أو منطلقا ينطلق ويبحر في العلوم.

وأما في الروي فيذكر رواة الحديث الشريف ويذكر ما يأخذ منهم من كلام العرب وشعرهم بطريقة علمية توحي لك بأنه لا يترك احداً أوصل اليه شيء إلا وذكره، فعندما يذكر الأصمعي يذكر من أوصله اليه بطريقة: حدثني فلان عن فلان الى أن تصل الى ذلك العالم. فإننا نجد هو الوحيد من كتّاب عصره قد تفرد بهذه المنهجية التي أصدق ما يقال عنها إنها منهجية أهل العلم وحق لهذا الكتاب (تأويل مشكل القرآن) أن يكون من الكتب التي حازت على هذا الاعجاب من تأريخ تأليفه الى يومنا هذا. واتسمت منهجيته بالسمات التالية:

أولا: طريقة عرضه للمادة العلمية:

لا يخفى على كل قارئ لكتاب (المشكل) إلا أن يجد منهجا مرتبا ترتيبا علميا ومنظما في هذه الطريقة ؛ لأنه أراد الرد على الطاعنين باختلاف مناهجهم ومذاهبهم، فنجده يعقد أبوابا للرد عليهم في أن القرآن له وجوه عدة في القراءات أو قراءات متعددة ليرفع الشبهة عمن قال بلحن القرآن، وأن فيه تناقض واختلاف بين آياته أو تشابه، حيث أنهم قالوا عنه: ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان !! فأجابهم بطريقة علمية في مسائل القراءات والمجاز الذي اكتنف آيات القرآن التي تكتفي بلفظ القليل، وتفيض عن معانٍ كثيرة. فكانت طريقته في العرض يذكر أبواب المجاز وما جاء منها في كتاب الله ثم يقوم بتحليلها بطريقة سهلة عندما يذكر أبيات من الشعر التي تفسر هذا المشكل وبعض لغات العرب.

كما أنه في بعض الأحيان يستطرد في ذكر ما استعمله الناس في كلامهم. فيذكر ما في السورة

ثم يقوم بتأويله حسب ما يراه من أوجه صحيحة وتفسيرات دقيقة من فيض عقله، كما أنه لم يعتمد أسلوب الترتيب المتبع في المصاحف في عرض المشكل على نحو متسلسل من السورة القرآنية ؛ بل يذكرها حسب ما جاء له الاستشهاد في أي موضع، وقد لا يستوفي الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها فيعمل الى ذكرها أكثر من مرة، كما نلاحظه في سورة البقرة والأنعام والنحل والنساء. فقد تحدث عن المشكل في سورتي البقرة والأنعام في أربعة مواضع، والنحل والنساء في ثلاثة مواضع . ..... الأمثلة. ... كما في قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ }: هو ـ الهام ـ منه للملائكة، كقوله {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}[١]. أي الهمها، وكقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}[٢]، وذهبوا في الوحي ها هنا: الى الالهام[٣].

ومما يلاحظ في منهجيته أيضا أنه لم يتعرض الى كل ما أشكل في سور القرآن فقد نراه يأخذ بعضها ويترك البعض الآخر الا في سورة واحدة فنجده قد استوفى تأويلها وشرحها والوقوف عليها ؛ لعلّه وجدها أكثر غموضا وإشكالا من باقي السور ألا وهي (سورة الجن) فقد أظهر تكرار إن المكسورة واختلاف القرّاء في قراءتها من نصبٍ وكسرٍ، وكثرة الاختلافات والتشابهات من قول الله وقول الجن.

ثانياً: أبواب التأويل :

يجدر بالباحث أو المطلع على (مشكل القرآن) فيمكن يجده وثيقة للرد على الطاعنين والملحدين، فأنهم رأو في بعض الأماكن إشكالات فأشكلوها الناس، وشبهات أنكروها ليأتوا على طعنه من هذا الجانب، فكتابنا هذا لم يكن كتاب تفسير أو كتب ونظم من أجل العلم به، أي نعم فيه علم وفير، ولكننا نجد أنه وثيقة للرد في مواطن التشابه وكأننا أمام مناظرة أو حوار كما يجري الآن على شاشات التلفاز وغيرها، ولكن بطريقة علمية أكثر فنجد الاستشهادات من القرآن أو الشعر أو من كلام العرب وما يخص الحروف والمعاني، وما يستوجب له، فهو كتاب لرد الشبهة أكثر مما هو كتاب منهجي، فحريّ به أن يفسر ما أشكله المشكلون والرد عليهم بما يوالمها من كلام نزل فيه القرآن، وهو كلام العرب لمعرفة أصل هذه الكلمة والمعاني التي جاءت بها، فموضع نجد أنه يذكر كلمة أو كلمتين، وينهي الجدل فيها أنها وضحت، كقوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[٤]، وليس يومئذ قول منه لجهنم، ولا قول من جهنم، وإنما هي عبارة عن سعتها وفي موضع آخر نجده يستدل أيّما استدلال فيكثر من مرادفاتها، ويفسر بعضها الآخر. كقوله تعالى { تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى}[٥]، يريد: أنّ مصير من ادبر وتولى اليها، فكأنها الداعية لهم؛ كما

(١) سورة النحل: جزء من الآية ٦٨ .
(٢) سورة الشورى: الآية ٥١ .
(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ١٠٦ .
(٤) سورة ق: الآية: ٣٠ .
(٥) سورة المعارج: الآية ١٧ .

قال ذو الرُّمة:

دعــتْ ميّة الأعــدادُ واستبدلتْ بها

خَناطيلَ آجــالٍ من العينِ خُــذّلِ[١]

والاعداد: المياه، لما انتقلت ميّة اليها ورغبت عن ماءها، كانت كأنها دعتها[٢].

وكقول الآخر: ولقد هبطت الواديينِ وواديا يدعو الأنيس به الغضيضُ الأبكمُ[٣]

والغضيض الأبكم: الذباب، يريد: أنه يطنّ فيدل بطنينه على النبات والماء، فكانه دعاء منه وقال أبو النجم يذكر نبتاً:

مــســتــأْســداً ذبّــانُــه فــي غــيــظــلٍ

يــقــلْــنَ لــلــرائــدِ: أعــشــبْــتَ أنــزلِ[٤]

ولم يقل الذباب شيئاً من هذا، ولكنه دل على نفسه بطنينه ودل مكانه على المرعى؛ لانه لا يجتمع الا في عشب، فكأنه قال للرائد: هذا عشب فأنزلْ[٥]

ثالثاً: أسلوبه في طرح المادة العلمية :

لابن قتيبة أساليب وضعها في منهجه الذي حوى دفتي هذا الكتاب وأراد ردُّ الشبهات والدفاع عن كتاب الله، فلم يكن مبعثراً، أو غير منظماً على العكس فتجد في منهجيته مزيجٌ رائع من الأساليب التي يستخدمها في الرد على أصحاب البدع والمنكرون أو المشككون أو الملحدون فقد جاءت منهجيته وفق القول الذي يدعون به ويذكر الآية ويذكر شرحهم لهذه الآية كما نجد مثلا: وقالوا في قوله تعالى: { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}[٦]. كيف يثني موتاً في الدنيا من مُكثهم في الجنة ؟ وهل يجوز أن يقول في الكلام: لا أعطيك اليوم درهمان إلا ما أعطيتك أمسا، وما نجده مسطرٌ من أقوال المشككين[٧]. ثم يقول بالرد عليها من خلال القراءات القرآنية واختلافاتها، ثم يذكر قول (تحتج عليهم فيه بقول النبي ﷺ ...)[٨]

وهكذا يستطرد في الردود ما بين القراءات القرآنية أو الحديث الشريف، أو ما يأتي في شعر العرب ويستشهد بأقوال أهل اللغة مثل الأصمعي والزيادي، فيستشهد ما ينقل عنهم من أقوال في الشعر العربي وعن طريق العنعنه حدثني فلان عن فلان عن فلان. ... أو نجده يذكر في بعض الأحايين وذهب (قومُ) في قوله تعالى، أو وقال بعضهم، أو قالوا في قوله.. هذه كلها نقولات يذكرها ابن قتيبة في كتابه ليتحرى فيها الدقة كل حسب اختصاصه، ولا يترك مفردة إلا ويفسرها أو يستشهد بمرادفاتها لتقريب

(١) في لسان العرب: ٢٧٦/٤، (قال ذو الرمة يذكر امرأة حظرت ما عدا بعدما نشّت مياه الغدران في القيظ . واستبدلت بها: يعني منازلها التي طعنت عنها حاضرة أعداد المياه فخالفتها اليها الوحوش وأقامت في منازلها، وهذه استعارة)

(٢) تأويل مشكل القرآن: ١٠٨ .

(٣) البيت غير منسوب في اللسان: ٢٧٦/٤، والمعاني الكبير، لابن قتيبة: ٦٠٣ .

(٤) البيت في كتاب الحيوان، الجاحظ: ٣١٤/٣، والطرائف الأدبية: ٥٨ .

(٥) تأويل مشكل القرآن: ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٦) سورة الدخان: جزء من الآية: ٥٦ .

(٧) تأويل مشكل القرآن: ٢٩ .

(٨) المصدر نفسه: ٣٢ .

الصورة لتفسير هذه الكلمة، إذن نستطيع القول أن منهجيته ابن قتيبة مزجت ما بين الطريقة العلمية المتبعة في ذلك العصر وبين السهل الممتنع الذي تفهمه ويصل الى المتلقي بأبسط صورة، لكن نجد طريقته فيها دقيقة واستشهاداته تجسد إشكاليات الموضوع بكل معانيه.

رابعاً: اقتصاره على القضايا الخاصة بالمشكل: أو مرتكزات ابن قتيبة الخاصة في كتابه

يعتبر كتاب ابن قتيبة ذا قيمة تاريخية وأدبية مهمة سطرت في زمن اتسع العلم في الآفاق وبرز من هذه العلوم جيدها ونفيسها، واضمحل دون ذلك من المؤلفات الأخرى، كما نجد ذلك واضحاً في هذا الكتاب لأنه لم يقتصر على الرد على المتجاوزين على القرآن الكريم والتشكيك فيه والرد عليهم، بل اتسع هذا الكتاب الى وجود مادة علمية واضحة فيه، فعندما نقرأ (باب عظيم القدر) بالغ الأهمية وهو باب اللفظ الواحد لمعاني مختلفة، حيث نجده يتحدث فيه عن أكثر من أربعين لفظاً من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم متحدة المباني، وكلها مختلفة المعاني كالقضاء والبلاء، والأمة والرؤية والحساب والكتاب، والضلال والنسيان. ... الخ.

فنجد فيه متسعاً من العلوم التي أوردت باب اللفظ والمعنى لكثير من المصطلحات. كما ونجده في باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تنصرف، كأين، وأنا، ولولا، ولوما وغيرها.

وكذلك في خاتمة كتابه، يذكر باب مهم من أبواب العربية وهو باب (دخول بعض حروف الصفات مكان بعض)، ونجده في هذا الباب والذي سبقه أنه قد مزج بين كلام البصريين، وكلام الكوفيين في ذكر هذه الأبواب.

فتعريف المعاني تعبير بصري، وحروف الصفات تعبير كوفي [1]. فيعتبر كتاب ابن قتيبة ذا قيمة أدبية لأنه ورد في شواهده الكثير من الأبيات الشعرية وأقوال العرب، وفسر هذه الابيات والأقوال بطريقة تضيف لذخيرة الأدب مادة علمية لا يستهان بها، وكانت منبعاً لمن جاء بعده من العلماء الذين أخذوا عنه في القول برد المفردات الى أصولها المعنوية والمشتركة التي سبق فيها أبو علي الفارسي (ت ٣٠٧ هـ)، وابن جني (ت ٣٩٢ هـ)، وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ).

وقد يرجح السيد محمد صقر محقق هذا الكتاب الى أن فكرة ابن قتيبة هذه هي التي أوضحت الى ابن فارس تأليف كتابه (مقاييس اللغة) وأوضحت كذلك الى تلك المباحث اللغوية التي تضمنها تأويل مشكل القرآن للصاحب في فقه اللغة وسنن العرب [2].

كما نجد أنه أفرد أبوابا عدة في البلاغة منها المجاز، فقد بدأ بباب الاستعارة ثم باب المقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه، وباب الكناية والتعريض، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه.

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه: ٨٣ - ٨٤ .

فهذه الأبواب لها قيمة أدبية وعلمية ؛ لأنها أثرت الكتاب لكثير من الشواهد التي أراد شرحها وتفصيلها للربط بين اللفظ والمعنى الذي يعطي كل عبارات القرآن الكريم أو اللغة العربية أو الشواهد التي ساقها في ذا الصدد.

ولكننا نرى أن ابن قتيبة في هذا الكتاب قد ذكر أبواب البلاغة وأبدع فيها وهي مرتكزة من مرتكزاته أو منطقة عبور البلاغة وإن صح القول فيها: أنها ظلمت بعض الشيء ؛ لأنها لم تذكر من بين الكتب البلاغية التي يعرفها العديد من الباحثين بأن هنالك طفرة ما بين بلاغة الجاحظ والجرجاني الى بلاغة السكاكي والقزويني، لكننا نرى في كتاب ابن قتيبة هذا هو امتداد لما بين الدفتين، ونقصد بها الجاحظ والجرجاني في طرف، والسكاكي والقزويني في طرف آخر، وابن قتيبة الامتداد بينهما.

***

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعه مع هذا المفكر الكبير»إبن قتيبة» ومنهجه في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، توصلنا اللى النتائج الآتية :

١- كان الغرض من تأليف هذا الكتاب هو للرد على المطاعن التي وجهها اعداء الدين الى القرآن الكريم بوجود تهافت في إسلوبه وتناقض بين ألفاظه، ويبدو ذلك واضحاً من خلال النظر الى عنوان الكتاب.

٢- تنوعت مصادر هذا الدفاع المقدس لدى «إبن قتيبة» من القرآن الكريم نفسه او القراءات القرآنية أو من خلال السنةّ النبوية، والإستفادة من جميع المباحث اللغوية والبلاغية والشعر العربي والنحو.

٣- شكلّت هذه المصادر أسس منهجه ومعالمه التي سار عليها.

٤- لايمكن - ومن خلال هذا البحث المختصر- الاحاطة بجميع المصادر التي إعتمدها المؤلف والتي شكلت منهجه في مؤلفه هذا.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١. اساس البلاغة: جار الله الزمخشري، (ت٥٣٨ هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١ـ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م)
٢. الأعلام: خير الدين الزركلي، (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت (ط١٥ـ٢٠٠٢م)
٣. تاج اللغة وصحاح العربية: اسماعيل الجوهري، (ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (ط٤ـ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م)
٤. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط١ ـ١٤٢٢هـ ـ٢٠٠٢م)
٥. تأويل مشكل القرآن :بن قتيبة الدنيوري، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٦. التعريفات: الجرجاني، (ت٨١٦هـ)، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١ـ١٤٠٣هـ ـ١٩٣٨م)
٧. رفع الأصر عن قضاة مصر: بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة (ط١ـ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م)
٨. صحيح البخاري: محمد ابن اسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير، دار طوق النجاة، (ط١ـ١٤٢٢هـ)
٩. غريب القرآن: بن قتيبة الدنيوري، تحقيق احمد صقر، دار الكتب العلمية، مصر، (١٣٩٨هـ -١٩٧٨م)
١٠. كتاب الولاة وكتاب القضاة: محمد بن يوسف الكندي (٣٥٥هـ)، تحقيق محمد حسن وأحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ط١ـ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م)
١١. لسان العرب: محمد بن مكرم إبن منظور، دار صادر، بيروت، (ط٣ـ١٤١٤هـ)
١٢. مجاز القرآن: ابو عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢٠٩هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط١ـ١٣٨١هـ)
١٣. مختار الصحاح: محمد بن ابي بكر الرازي، (ت٦٦٦هـ)، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥ ـ١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م)
٤١. معجم الأدباء: شهاب بن ياقوت الحموي، تحقيق أحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط ـ ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م)
١٥. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م)
١٦. المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، (ت٥٠٢هـ)، ضبط هيثم طعمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان
١٧. مفهوم النص :نصر حامد ابو زيد، مؤمنون بلا حدود، بيروت، لبنان، (ط١-٢٠١٧م)